

تأليف الأرواح

4

أصبحت علامة السالك، الصادق في هجرته إلى الله تعالى، علامة واضحة يتعرف إليها الداعية الذي أرهبته أهوال وصف الهوى الناقض لحيوية الابتداء المتحرك الدفاق النابض، تعرفا سريعاً لا يحتاج إلى مزيد فراسة وتجربة.

فليس من عجب إذن أن يسرع أبو علي الروذباري الإشارة إليها لما سألوه عنها، ولا عجب ثانية للبلاغة التي انبغت له وكانت بين يديه، حين طفق يمنح هوية العمل وفق شروط ثلاثة، ويحكر صادق السلوك على: (من سلك طريق المصطفى.

وأطعم الهوى ذوق الجفا.

وكانت الدنيا منه على القفا) ^(٦).

ليس لمقبل على دنيا، أو صريع هوى معهم نصيب.

عصبة العزم باقية

إنه سلوك طريق المصطفى ﷺ أول الشروط، بل البديهية التي قد لا يرى البعض حاجة لذكرها، ولكن من يعلم أن بعض آيات الله هن أم الكتاب وأخر يعدلن الثلث يعلم أيضا أن بعض كلمات المصطفى ﷺ المحددة لطريقه الذي ندب لنا الروذباري سلوكه: هن أمهات الحديث،

(٦) تاريخ بغداد ١/ ٣٣٢.

يضعن الموازين، ويرسين القواعد، ويجمعن المتفرق، وإياهن يعني الروذباري قبل أن يكون عني الجزئيات، وعليهن يؤكد.

ولقد تحدث عليه السلام عن أمة حزم ضمن أمته العظمى التي تنتسب إليه، لا تترخص مع المترخصين، ولا تغفل مع الغافلين، بل تأخذ القرآن والسنة بعزم، ثم جعل لها علامة صارت ميزانا إسلاميا، فقال:

(لن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله، لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله).

أي أن الداعية المسلم حيث يبحث مستقبل الدعوة الإسلامية عليه ألا يفترض مجرد افتراض بقاء وثبات المجموعة الحازمة ضمن الأمة الإسلامية الواسعة ثبات استمرار على مر العصور، إذ تقنع بمثل هذا الافتراض كل نفس مليئة بالأمل، ولكن يتيقن الداعية ذلك يقين عقيدة.

تكامل يتبادل الخير

وذو النظر الجزئي يصرف المقصود بهذه الأمة إلى صنف من العاملين يبهره خيره وفضله، فمن قائل أنهم أهل الحديث، ومن قائل أنهم الفقهاء، أو ثالث يرى أنهم الزهاد، أو الأمرة النهاء عن المنكر.

والصواب أنها الأمة المتكاملة الاختصاصات، التي يعطي وجودها صورة حركية بحاجات الإسلام المتعددة، كما رآها الإمام النووي:

(فرقة من أنواع المؤمنين ممن يقيم أمر الله - تعالى، من مجاهد وفقهه، ومحدث وزاهد، وأمر بالمعروف، وغير ذلك من أنواع الخير ولا يلزم اجتماعهم في مكان واحد، بل يجوز أن يكونوا متفرقين)^(١).

(٦) فتح الباري بشرح البخاري ١/ ١٧٤ طبعة الحلبي.

يعني: تفرق المكان، الانبثات والانتشار، لا تفرق الكلمة والبعد عن التشاور وإهمال الأسلوب الواحد.

وهذا من فقه النووي في العمل ومعاني الدعوة.

أما من قصرها على طائفة معينة فإنها يصيب بمقدار ما في الواحد النموذج من أفراد تلك الطائفة من كمال في الصياغة التربوية والعملية؛ كالإمام أحمد بن حنبل حين ذكر أنهم أهل الحديث، فإنه رأى شخصية المحدث جامعة لرواية الحديث المسند والفقه في متونه والزهد ومكارم الأخلاق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد، فقصر الوصف عليهم وأصاب، ثم خلفه على توالي القرون خلف أخذوا من تفسيره حروفيه، ولم يلتفتوا إلى الواقع الموصوف وكمال صياغات الدعاة من المحدثين الذين عضدوه في جولته مع الجهمية والمعتزلة، فعكفوا منفردين على ألفاظ من الحديث مجردة، وتركوا المجتمع يربيه من لا دين له، والسياسة يمارسها كل عميل وفاسق، يظنون أنهم الأمة القائمة على أمر الله. ولا شك أن جماعة من أفراد تكاملت صياغة كل واحد منهم فقرن العلم بالجهاد والأمر والنهي بالزهد: أرفع من جماعة أخرى يكمل اختصاص الواحد منهم اختصاص الآخر.

وهذا ما يضع الجماعة المتصدية للقيام بأمر الله أمام واجب التربية الجماعية التي تأخذ من خير هذا ليشاركة هذا، ومن خير هذا فتفيضه على هذا، فيبطل أمر من خالفهم، بما سدوا من ثغرات، قد ينفذ منها هذا المخالف إلى أحدهم فيضرهم.

واجب تربوي لا تظن أن السلف غفلوا عن إدراكه أو تلبية متطلباته، بل لا تزال قصص حياة بعضهم تنتظر من يفيد منها من دعاة الإسلام اليوم

اقتداء واتباعاً، من بعد ما بنت جيلاً من الدعاة في يومها الماضي، أصلحوا ما أفسد الضعفاء، وقوموا ما حرفة الدنيويون.

نظرية الأشكال المؤتلفة

يبرز منهم في الصدر الأول: التابعي المحدث الفقيه المربي الشاعر:

عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود الهذلي، حفيد أخي عبد الله بن مسعود رحمته الله، وأحد فقهاء المدينة السبعة، ومن رءوس العلم والنباهة الذين تلمذوا لعبد الله بن عباس وأبي سعيد الخدري وأبي هريرة والنعمان ابن بشير وعائشة أم المؤمنين، رضي الله عنها وعنهم أجمعين ^(١).

نهج عبيد الله منهجاً تربوياً ساه: (التأليف بين الأرواح)، وخلد عنوانه شعراً فقال:

وما يلبث الفتيان أن يفرقوا إذا لم يؤلف روح شكل إلى شكل ^(٢)

ظاهرة بيت شعر تحركت به شفقة شاعر ليطرب قلوباً يبهجها الحرف البليغ، لكنه لمن عرف خلفياته يمثل خلاصة تجربة تربوية انسابت عبر سيرة مربٍ مصلح لتغذي قلوب يلذعها تفرق المسلمين.

يجزم أنه إحلال الألفة بين الأرواح، أو هو الاختلاف المشت.

يعني ذلك أن مذهب التربوي لا يبدأ ولا يكتفي بإعطاء العقول ما تحتاجه من علم شرعي، وتربية فكرية، وخبرة سياسية، ودراسة واقعية، بل يعتني بالقلوب أولاً بجعلها متشاكلة، ويظل يواصل عنايته بها إن التفت إلى العقول بعد.

(١) تهذيب التهذيب ٣٣/٧.

(٢) الأغاني ٩/١٤٤.

فمغزى نظريته أنها تعطي للتربية الروحية الأولوية.

وربما أعطت نظرة سريعة لحديث عبيد الله بن عبد الله في صحيح البخاري ومسلم صورة قريبة من التفصيل لما كان يربي أصحابه عليه، ولكن التفصيل كل التفصيل تفهمه إن علمت أن تربيته أنتجت عمر ابن عبد العزيز رحمته، مثال المتجرد، ونموذج الحاكم العادل، إذ كان هو مؤدبه الخاص ومربيه الذي لقنه معاني الإيمان.

فمن بهرته شخصية عمر عليه أن ينظر من صاغ عمر وكان وراءه، ويفحص نظرية التأليف التي ألفت بين قلبه وقلوب عصابة الخير التي عاونته في إشاعة العلم والعدل في الأمصار، ممن صقلتهم صحبة عبيد الله بن عبد الله، من أمثال: أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، أحد فقهاء المدينة السبعة ووالي عمر على المدينة، والزهري زعيم المحدثين، وسعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف، وعراك بن مالك القاضي، وصالح بن كيسان.

فلقد علمهم عبيد الله أسس السلوك في عصر الفتن الذي عاشوه، واستطاع بنظريته التربوية أن يوجههم لتأسيس مجتمع السلام والعلم من بعد ما كادت الخلافات تستهلك ما عند الناس من خير، وأداه صدق نيته في مسعاه، وتركيزه على تربية عمر بن عبد العزيز من بعد، ووعيه للاحتتمالات التي تكتنف مستقبل عمر، إلى تأييد رباني رفع عمر إلى السلطة، ليعلم الناس علم الآخرة من مركز القوة المهاب لا من زوايا المستضعفين المنسية.

نعم، حال السلم بين عمر والإتمام، وشوش أبو مسلم الخراساني فيما بعد على تلامذة جيل الإصلاح الذي وعي نظرية تأليف الأرواح، لكنها كانت

بارقة ولا زالت تثير طريق الدعاة السائرين، وكلمة باقية في عقب عبيد الله من حزب تأليف الأرواح.

مع السرب في النشيد

فلقد ظل وميض البارقة يتوالى، حتى استنار به إقبال من بعد القرون، فجدد حكمة عبيد الله، وراح يترنم في رياض لاهور، تتهادى نغمته، تعلم المسلم الجديد:

كل من أوتي حظاً من حياة في سوى بيئته يلقى رداه
بلبل أنت، ففي الروض امرح ومع السرب بلحن فاصدح^(٦)

فليست الدنيويات بيئة المسلم، ولا مجرد الفكرة تعصمه، ولا الأهداف الجزئية تمبه الحياة، بل مؤتمر المؤمنين الشامل الغايات ومجمعهم المتكامل الذي يتهادى الخير.

يريد إقبال: ألا نفرد، ولا نأتي بنغمة نشاز تسلب اللحن جماله.

يريدنا سرب لسان واحد بعد ما كنا زمرة قلب واحد، نمرح مرح الآمال، لا نحزن حزن اليأس.

يريد تشديداً في نفوس الجميع، نبر به كل نتوء زائد فيهن، ليتسق خطهن المستقيم، أي: محاسبة النفس وعتابها، فإن لم تستح فتقرعها.

علمك بالفساد صلاح

فلقد كاد أمية بن أبي الصلت -وظلام الجاهلية من حوله- أن يسلم بهذه المحاسبة ومثيلاهما، يوم قال:

(٦) ديوان الأسرار والرموز/ ١٢٠.

عبد دعا نفسه فعاتبها يعلم أن البصير راقمها^(١)

فسنها أمة سنة فطرية قبل أن تكون أمر شرع، تبكت من لم يأخذ الكتاب بقوة، أن شاعرًا جاهلياً سبقه في الفقه، فأيقن أن بصيراً علياً يراقب خلجات النفوس من فوق سبع سموات ويحصيها ويعدّها عداء، وراح يلوم نفسه ويدقق في النقاش.

والمسلم الصادق يزيد على ذلك، فينظم نداء الفطرة بإرشاد القرآن، وتفزعه احتمالات النفس وزخارف تمنياتها، فيلجأ إلى الله رأساً وبلا إبطاء، يردد خلف تلميذ الثوري يوسف بن أسباط دعاءه:

(اللهم عرفني نفسي).

فإن في النفس من الأسرار والخفايا ما لا يكشفه إلا عون الله لنا، حتى أستاذنا في علم النفس مثل سهل بن عبد الله التستري الزاهد يجزم بأن:

(معرفة النفس أخفى من معرفة العدو).

أي أن عيوبها تستتر وتموه أمرها كما يتستر العدو ويخادع، لكنه خفاء لا بد من اقتحامه واستجلائه إذا أردنا النفس الزكية، وتعيين مكان العلة يسبق مقص الجراح.

إن بحث الطبيب عن داء ذي الداء لأس الشفاء قبل الشفاء

أو كما قال زاهد مكة الثقة وهيب بن الورد:

(إن من صلاح نفسي: علمي بفسادها، وكفى للمؤمن من الشر أن يعرف فساداً لا يصلحه)، وكقول حسن البصري: (لا يزال العبد بخير ما علم الذي يفسد عليه عمله)^(٢).

(١) عيون الأخبار ٢/ ٣٧٥.

(٢) كتاب الزهد، لابن المبارك/ ٥٢٨.

فلا يزهّدنك فيها أنها معرفة عيوب وتأمّل سالب، بل أنظرها على أنها خطوة ضرورية في طريق الإصلاح كما نظرها وهيب.

وأنظرها على أنها صفة لا غنى عنها للداعية إن أراد أن يتحقّق في الدعوة، فإن من لم يعرف نفسه وينكر عليها منكرها: لا يستطيع أن يعرف نفس غيره ويقوّم اعوجاجها.

تلك مادة في قانون العمل عند الكيلاني تقول:

(إذا كنت منكراً على نفسك قدرت على الإنكار على غيرك.

على قدر قوة إيمانك تزيل المنكرات، وعلى قدر ضعفه تقعد في بيتك وتتخارس عن إزالتها.

أقدام الإيمان هي التي تثبت عند لقاء شياطين الإنس والجن)^(١).

إنها حروف ليست كغيرها أن يقول الكيلاني:

(تقعد في بيتك وتتخارس).

جرسها خيف .

إنها حروف هجاء مر في لغة الدعاة.

ويا له من عار يأنف منه كل عزيز نفس، والغيور لا ينسى هذه الجملة، كأنه يرى وجه الكيلاني يطل عبر القرون، يهتك عليه ستار النافذة، يعيره تواريه بالبيوت، وتلبسه بعيوب تقود إلى قعود.

تنقية وصفاء

وتسميها اللغة عيوباً وأخلاقاً، ولكننا عرفنا الغيبة وحب المدحة والهوى: سلاسل مقيدة وسهام شيطان، ونواقض بدايات نابضات.

(٦) الفتح الرباني / ٣٠.

فلا جرم أن يسمى الثوري الرياء بعد ذلك فسادًا حين يوصي أخاه ويقول:

(إياك وما يفسد عليك عملك، فإنما يفسد عليك عملك الرياء).

يمر عليه هكذا ولا يعرفه، غير ناس ولا عاجز، بل لأنه أمام معنى لا يمكن تعريفه، إنما يعرفه البريء منه فقط، كما يقرر الفضيل بن عياض حين يقول:

(لا يعرف الرياء إلا مخلص).

فمن ذاق حلاوة الإخلاص: عرف مرارة الرياء، ليس من طريقة أخرى. يكن مخلصًا ثم كفى، وسلام على عباد الله المخلصين.

آخر ك تنن يا هذا...

وإلا فإن الرياء يولد عجا، ينسى معه أن الناس تراب وماء، وينسى منة الله عليه إذ جعله مسلمًا، فيتبختر، ويتصنع ويتكلف المظاهر والفصاحة، ويستأجر له حاشية تحيط بهيبة عارية.

ولو درى أوله وحاضره وممتهاه لوقف مكان الشاعر الذي يصفه متعجبًا، ولزاد تعجبًا!!

فضائح مزرية نسيها المعجب فضحك منها الشاعر:

عجب من معجب بصورته	وكان بالأمس نطفة مذرّه
وفي غده بعد حسن صورته	يصير في اللحد جيفة قذرّه
وهو على تيهه ونخوته	ما بين ثوبيه يحمل العذرّه ^(١)

ولذلك منع الثقات إسماع الثقة مثلهم كلمة مدح فيه، بسبب قرب قميص العجب من النفوس، ألا تتناوله يد الممدوح فتلبسه، حتى خشي عمر بن الخطاب على مثل أبي موسى الأشعري رحمته الله ما قد يولده المدح من غرور في نفسه فقال لأنس رحمته الله يصف أبا موسى: (أما إنه كيس، ولا تسمعها إياه) ^(١).

فإن وقع أحد في العجب، وعاون الثقات الشيطان على أخيههم بمدحهم له في الوجه على حين غفلة من أنفسهم تطور العجب إلى كبر فيه غمط حق الآخرين، ونسي التواضع.

نعم، كما قال يونس بن عبيد:

(ليس في هذه الأمة رياء خالص، ولا كبر خالص.

فقليل له: لماذا؟

فقال: لا كبر مع السجود، ولا رياء مع التوحيد).

ولكن هذا السجود يحقق المنزلة الواطئة الدنيا من الفضل، وفوقها درجات من الفضل تتصاعد حتى تسمو، وقد أمرنا بالإتقان والمزيد، وإنما ذلك دين المتكاسلين، أن يرضوا بالقليل وينفذوا الضروري الذي يرفع عنهم شبهة الكفر والنفاق.

وماذا على داعية الإسلام لو أشبع نفسه بدل ذلك باستعلاء على نموذج الناس المنحرف، وجمع في الوقت نفسه تواضعاً لأخيه؟ ويبين مذهبه لمن يظن أنه في تناقض فيقول:

أتيه على كل الأنام نزاهة وأشمخ، إلا للصديق، تأدبا ^(٢)

(١) طبقات ابن سعد ٢/٣٤٥.

(٢) ديوان البهاء زهير/ ٣٥.

فهو شموخ النزاهة، يسع الداعية، يغنيه عن الكبر، وهو تواضع الأخوة يتأدب به الداعية بلا تهمة خنوع، بل يلحق برعيل من دعاة خمسة سبوقه، قص الإمام البنا علينا في مذكرات الدعوة والداعية قصة رضاهم بعامل نجار أميراً عليهم لما عنده من الفقه والصلاح والتضحية، وإعراضهم عمن يحمل شهادة الأزهر العالمية.

ولذلك ثبتوا، وغشيت قلوبهم السكينة في ظلال الدعوة؟
(ألا ترى أنه من شمنخ برأسه إلى السقف شجّه، ومن تطأطأ أظله وأكّنه؟)



8 الجندية طريق القيادة

حين تدعي نظرية ما دعواها، فإن اللحظات الحرجة وحرارة التحديات هي التي تكذبها آنذاك أو تصدقها، فيرسخ مدلولها أو يهمل، ويصير أساسا في التعامل والتفاضل أو يعرض عنه.

وحين أدلى عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بنظرته في الأشكال الروحية المؤتلفة، وجربها في أصحابه وتلامذته كان عليه أن ينتظر يوم فصل يؤيد مذهبه أو يخونه، فيتكفل بنقله للأجيال اللاحقة، أو يسلمه النسيان.

الإمارة حمل ثقيل

ولقد كان يوم خلافة تلميذه عمر بن عبد العزيز هو ذاك اليوم الفصل، فلئن لم يكن ثمة جيش عاص يتحدى تلميذه وراء أسوار دمشق، فإن هناك تحديات نفس مقبلة على إغراءات الرياسة، وبطراً اجتماعياً، ورخاوة خلف لسلف المهمة والجهاد.

ومع كل خطوة لعمر حين كان يرتقي المنبر ليخطب خطبته الأولى: كانت ترتجف قلوب الذين يظنون أن عبيد الله قد أحيا فيهم فقها كاد ينحرف بالتأويل، وتزداد دقات قلوبهم مع استدارة عمر، يخافون أن تغلب شهوة تنفر الناس عن مذهبهم التربوي، وتزهدهم فيه.

إنها رجفة الحاسم، لا الشك في الفقه المسند، إذ ربما كان للخوف معنى لو كان لسان عمر يتكلم أو عقله المجرد، لكنها كانت دموعه ثم، وكان قلبه...

كان فوق المنبر خريج مدرسة يحاول أن يفني لأستاذه، ويطمئن أشكاله ويجزن متواضعا لفتيان لم يعرفوا ما عرف تفرقوا، فانطلق يعلن انتصار عبيد الله.

(ألا إني لست بخيركم، ولكني رجل منكم، غير أن الله جعلني أثقلكم حملاً)^(١).

وهذا الشعور هو أدنى ما تحس به الأرواح المؤلفة وتتميز به عن غيرها، فحين تزول المزايا المصطنعة، والطباع المتكلفة، ويحل التواضع، وتسود الأخوة لن يبقى من معنى الإمارة والرئاسة إلا ثقلها الثقيل.

عمر يطور مذهب التأليف

لقد أبرد عمر حقا بكلماته هذه قلوبا طال همها واشتياقها إلى رؤية واقع يظنه الضعاف خيال مثاليات، وتحليق تمنيات.

نعم، كانت كلمات عمر وعداً للمستقبل، وإخباراً عن شعور متوار في كامن الصدر، ولكن كفى بوعود الأحرار ضماً، وبأخبارهم صدقا، ولذلك أسلس له الناس القياد، وحصل منهم تجاوب سريع معه، أحسن عمر استغلاله أيما إحسان، فطور نظرية أستاذه في التأليف، فجعل ابتداء التربية ينطلق من معالجة أعقد عقدتين في الجماعات: عقدة الفراغ، وعقدة حب الرئاسة والتنازع عليها.

فالمطالع لسيرة عمر يجد بشدة اهتمامه بعلاج هذين العيين واضحا وظل تأثيره في ذلك ينطق الشاعر بعد الشاعر، والحكيم بعد الحكيم يستمدون من تجربته معاني الإصلاح.

(٦) طبقات ابن سعد ٥/ ٣٤٠.

عرف عمر سيئات الفراغ، فأوجد للناس شغل خير ألهاهم، إن لم يكن عملاً عمرانياً وسعياً في مصالح المسلمين، فشغلاً تأملياً مع النفس، وفكراً في القلب، يفيضان من بعد عزمات فنهضات.

لقد أخرجهم من الغفلة والإهمال والبرود، إلى التذكر والفحص والاستدراك، وكفى بهذا الإخراج نجاحاً عند من يعرف تربية الجماعات، وفي خطبة وكلمات كلها تسمية وإشارة إلى عيوب النفوس، وطرق إصلاحها، وترقب الموت، ورجاء رحمة الله، وخوف عقابه، ثم زاد فاستقدم الخوارج إلى دمشق، وأمرهم بإنهاء تفردهم ولزوم الجماعة، وذكرهم ضرر الفرقة، فبات جميع الناس في شغل وادكار، بمثلها انتفع أبو العتاهية من بعد، فاتضح له مثالب الفراغ، فقال:

ما أحسن الشغل في تدبير منفعة أهل الفراغ ذوو خوض وإرجاف

فالمشتغل جاد فيما هو فيه، يربي قلبه، ويعلي همته، والفارغ الكسول يفتش في الفتن عن لهُو يؤنسه.

ثم دعا عمر ثانية إلى زهد في المناصب هو أهم من الزهد في الأموال، واستخلص من الفتن التي حدثت في الصدر الأول دروساً، ووعظ المستشرقين للرئاسة مواعظ أمات فيهم حبها، بمثلها انتفع أبو العتاهية مرة أخرى، فحذرك:

أخي: من عشق الرئاسة خفت أن يطغي ويحدث بدعة وضلالا

وتخوفه هذا صواب لم يبالغ فيه، فإن شرع الله وعرف المؤمنين ينفران عن طلب الرئاسة، فمن طلبها تمحل لذلك ولا بد، فيزين الذميمة، فتكون البدعة، ويقمع المخالفة لها ويعاديه، فتكون الضلالة، ومن نظر إلى عهد ما بعد عمر أدرك ذلك، فإن القلوب عزفت عما قبحه وآمنت، إلا قلباً واحداً من قلوب أقربائه،

عشق الرئاسة، فسقاه السم، فمات عمر، فكان عصر الضلالة، والسنوات العجاف.

مدرسة الثوري تواصل التربية

ولما هالت المربين تلك الضلالة التي عكرت صفاء تاريخ المسلمين بعد عمر: أصفقوا على ذم التنازع على الرئاسة وتحذير الأجيال اللاحقة منه، وجعلوه أصلاً مستقلاً من أصول التربية الإسلامية، يتجاوز أن يكون مجرد علاج واقع أرهق الذين بعد عمر.

* فللثوري كلام كثير جَزَل في ذلك تصدرَّ به المربين، يبذره بتقرير واقع الناس، فيقول:

(ما رأيت الزهد في شيء أقل منه في الرياسة).

ورؤياه هذه ظلت تؤرقه، حتى أمسك بقلمه يكتب رسالته المشهورة إلى صاحبه عَبَاد بن عباد، وإلى كل عَبَاد من الدعاة في كل الأجيال، أن:

(إِيَّاكَ وَحُبَّ الرِّيَاسَةِ؛ فَإِنَّ الرَّجُلَ تَكُونُ الرِّيَاسَةُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفُضَّةِ، وَهُوَ بَابُ غَامُضٍ لَا يَبْصُرُهُ إِلَّا الْبَصِيرُ مِنَ الْعُلَمَاءِ السَّاسِرَةِ، فَتَفْقَدُ نَفْسَكَ، وَاعْمَلْ بِنِيَّةٍ).

ثم جسّد حقيقة ينساها طلاب الرئاسة، فذكرهم أن:

(من طلب الرياسة قبل مجيئها: فرت منه).

أي: يبقى عليه وزر الشوق الآثم، وزفرة الصدر الراغم، ليس إلا، ويرجع صفر اليدين، وبخفي حنين، لم يذهب لأبعد من فضح نفسه أمام جمهور العاملين.

* وكما كانت نظرية الأشكال المؤتلفة مذهباً لعبيد الله بن عبد الله جسده في جماعة عمل متأخية استدركت التفرق، كان نداء الحذر في طلب الرئاسة مذهباً للثوري جسده في جماعة زهد محتسبة استدركت تفرقاً آخر، ولانت لها نفس هارون الرشيد، فشغل الناس معه بحج أو بغزو، سنة فسنة.

* ولعل الفضيل بن عياض هو أهم أركان تلك الجماعة التي عضدت الثوري في شرح مذهبه من بعده، إذ صحبه وأخذ علمه، وتأخرت وفاته عنه قرابة ثلاثين سنة، كان يكثّر خلالها ذم التكلف في طلب الرياسات وعلى الأخص تركيزه على كشف النفسية المعقدة الغريبة التي يحملها طالب الرياسة.

يقول الفضيل:

(ما أحب أحد الرياسة إلا أحب ذكر الناس بالنقائص والعيوب ليميز هو بالكمال، ويكره أن يذكر الناس أحداً عنده بخير، ومن عشق الرياسة فقد تودع من صلاحه).

ومن لم يجرب الأعمال الجماعية يستغرب مثل هذا أو يستبعده، ولكن الممارس يحفظ قصصاً تصدق الفضيل أيما تصديق؛ فإن العمل الإسلامي حين يدع الانتقاء، ويلهيه التكاثر بالأعضاء يدخله أصحاب التخليط ويظهر في محيطه مثل هذا الذي وصفه الفضيل.

فمن لم يزهّد في الرياسة صار ميئوساً منه عند الفضيل، أي وإن زهد في الأموال وأطايب الطعام وجمال النساء؛ لأن (الزهد في الرياسة أشد من الزهد في الدنيا)، كما يقول صاحبه وصاحب الثوري، الزاهد يوسف بن أسباط.

كلام لا يقولونه اعتباطاً، بل كانت تأملاتهم في مصائر الجيل الذي عرفوه تعمل كعمل دوائر الإحصاء الحديثة، يحصون من كمل ونقص، ومن وصل ومن خائته قدمه، والعشرة التي عثرها، إن كانت في أول الطريق، أو عند الوسط، أو لما كاد أن ينتهي ولم يبق له إلا خطوة الفوز، ثم يعطونك نتائج الإحصاء في أقوالهم هذه.

تجريب وتدرج...

وأخذ الشعر أيضاً دوره في التحذير آنذاك، ولفت الشعراء أنظار المتنازعين إلى كثرة الأعداء من حولهم، وشأنتهم بالذي يحصل بين المؤمنين، وانتفاعهم به نفعاً مباشراً في عمل جاد إيجابي يستغل فرصة انشغال المؤمنين بأنفسهم، فأرسلها شاعر ذاك العصر زفرة ألم:

إن التنازع في الرئاسة زلة لا تستقال، ودعوة لم تنصر
أو ما ترون الشامتين أمامكم ووراءكم من مضمّر أو مظهر
وهذا في الحقيقة هو الوصف الدائم لظروف وآثار كل نزاع، بل إن كثرة الأعداء اليوم، وخططهم المنظمة، تجعل المحنة الحالية أعنف محنة مر بها الإسلام في تاريخه، وتستدعي أقصى درجات الوحدة الإيمانية بين العاملين. والنجاة من فتن اليوم لن تكون إلا باللجوء إلى الشرط الذي وضعه سلفنا بالأمس وأودعوا فيه خلاصة تجربتهم في اكتشاف مسلك الوصول الصحيح إلى الرئاسة، فإنهم لم يعترفوا إلا بالطاعة طريقاً إلى القيادة، وجزموا بأن من لم يكن في آخر الصفوف، تغمره عجاجة المتقدمين، فلن يستطيع أبداً قيادتهم إن شغل المكان واحتيج إليه.

ولذا كانوا لا يرأس منهم من لم يجرب حزمه مرءوسا
من لم يقدر فيطير في خيشومه رهج الخميس فلن يقود خيسا

قانون تدرج، ومرحلة اختبار، إذا أساء خلالها العامل أدب الجندية، واستعجل، وتطاول: جوزي بالحرمان، ودُعِيَ إلى التوبة، وأرجع إلى محل البداية يستأنف المحاولة.

لا.. يا عباد الرحمن

ليس في هذا القانون اعتداء، ولا احتكار أو تجبر، وإنما هو صياغة تجريبية لسنة النبي ﷺ في اختيار الأمراء، فإنه كان يقول: (إنا لا نولي هذا من سألناه ولا من حرص عليه)^(١). أي هذا الأمر من شئون المسلمين.

وشدد في النصيحة الصريحة لعبد الرحمن بن سمرة رضي الله عنه، فقال له: (يا عبد الرحمن بن سمرة: لا تسأل الإمارة، فإنك إن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها، وإن أعطيتها عن غير مسألة أعنت عليها)^(٢).

مع أن عبد الرحمن من صالحى صحابته وشجعانهم، ويكفيه أنه لما التزم وصية النبي ﷺ هذه صار قائد جيش المسلمين الذي كلف بفتح كابل عاصمة الأفغان، وكان حصنها من أمنع الحصون، وسقط عنده من شهداء المسلمين ما لم يكن في معركة أخرى.

سيد يشرح...

ولا يظن أن هذا المنع عن طلب الإمارة سيفوت فرصة الالتفات إلى خير صاحب الكفاية الصامت، فإن العمل اليومي يكشف ولا بد كل قابلية لدى الدعاة، وهي ظاهرة يؤكدها سيد قطب تأكيداً، فيتساءل:

(١) صحيح البخاري ٨٠/٩.

(٢) صحيح البخاري ٧٩/٩.

(لماذا لا يزكي الناس أنفسهم في المجتمع المسلم، ولا يرشحون أنفسهم للوظائف، ولا يقومون لأشخاصهم بدعاية ما؛ كي يختاروا المجلس الشورى أو للإمامة أو للإمارة)؟.

ويجب:

(إن الناس في المجتمع المسلم لا يحتاجون لشيء من هذا لإبراز أفضليتهم وأحقيتهم، كما أن المناصب والوظائف في هذا المجتمع تكليف ثقيل لا يغري أحداً بالتزاحم عليه - اللهم إلا ابتغاء الأجر بالنهوض بالواجب وللخدمة الشاقة ابتغاء رضوان الله - تعالى - ومن ثم لا يسأل المناصب والوظائف إلا المتهافتون عليها لحاجة في نفوسهم، وهؤلاء يجب أن يمنعوها.

ولكن هذه الحقيقة لا تفهم إلا بمراجعة النشأة الطبيعية للمجتمع المسلم وإدراك طبيعة تكوينه العضوي أيضاً.

إن الحركة هي العنصر المكون لذلك المجتمع، فالمجتمع المسلم وليد الحركة بالعقيدة الإسلامية...

أولاً: تجيء العقيدة من مصدرها الإلهي متمثلة في تبليغ الرسول وعمله - على عهد النبوات - أو متمثلة في دعوة الداعية بما جاء من عند الله وما بلغه رسوله - على مدار الزمان بعد ذلك - فيستجيب للدعوة ناس، يتعرضون للأذى والفتنة من الجاهلية الحاكمة السائدة في أرض الدعوة، فممنهم من يفتن ويرتد، وممنهم من يصدق ما عاهد الله عليه، فيقضي نحبه شهيداً، وممنهم من ينتظر حتى يحكم الله بينه وبين قومه بالحق.

هؤلاء يفتح الله عليهم، ويجعل منهم ستاراً لقدره، ويمكن لهم في الأرض تحقيقاً لوعده بنصر من ينصره، والتمكين في الأرض له، ليقيم مملكة الله في الأرض -أي لينفذ حكم الله في الأرض- ليس له من هذا النصر والتمكين شيء، إنما هو نصر لدين الله، وتمكين لربوبية الله في العباد.

وهؤلاء لا يقفون بهذا الدين عند حدود أرض معينة، ولا عند حدود جنس معين، ولا عند حدود قوم أو لون أو لغة أو مقوم واحد من تلك المقومات البشرية الأرضية الهزيلة السخيفة! إنما ينطلقون بهذه العقيدة الربانية ليحرروا الإنسان، كل الإنسان، في الأرض، كل الأرض، من العبودية لغير الله، وليرفعوه عن العبودية للطواغيت، أيًا كانت هذه الطواغيت.

وفي أثناء الحركة بهذا الدين - وقد لاحظنا أنها لا تتوقف عند إقامة الدولة المسلمة في بقعة من الأرض، ولا تقف عند حدود أرض أو جنس أو قوم - تتميز أقدار الناس، وتحدد مقاماتهم في المجتمع، ويقوم هذا التحديد وذلك التميز على موازين وقيم إيمانية، الجميع يتعارفون عليها، من البلاء في الجهاد، والتقوى والصلاح والعبادة والأخلاق، والقدرة والكفاءة، وكلها قيم يحكم عليها الواقع، وتبرزها الحركة، ويعرفها المجتمع ويعرف المتسمين بها، ومن ثم لا يحتاج أصحابها أن يزكوا أنفسهم، ولا أن يطلبوا الإمارة أو مراكز الشورى والتوجيه على أساس هذه التزكية...

وفي المجتمع المسلم الذي نشأ هذه النشأة، وقام تركيبه العضوي على أساس التميز في أثناء الحركة بتلك القيم الإيمانية، كما حدث في المجتمع المسلم من تميز السابقين من المهاجرين، ثم الأنصار، وأهل بدر، وأهل بيعة الرضوان، ومن أنفق من قبل الفتح وقاتل، ثم ظل يتميز الناس فيه بحسن

البلاء في الإسلام، في هذا المجتمع لا يبخس الناس بعضهم بعضاً، ولا ينكر الناس فضائل المتميزين، مهما غلب الضعف البشري أصحابه أحياناً فغلبتهم الأطماع، وعندئذ تنتفي الحاجة، من جانب آخر، إلى أن يزكي المتميزون أنفسهم ويطلبوا الإمارة أو مراكز الشورى والتوجيه على أساس هذه التزكية.

ولقد يخيل للناس الآن أن هذه خاصية متفردة للمجتمع المسلم الأول بسبب نشأته التاريخية، ولكنهم ينسون أن أي مجتمع مسلم لن يوجد إلا بمثل هذه النشأة.. لن يوجد اليوم أو غداً إلا أن تقوم دعوة لإدخال الناس في هذا الدين من جديد، وإخراجهم من الجاهلية التي صاروا إليها.. وهذه نقطة البدء، ثم تعقبها الفتنة والابتلاء - كما حدث أول مرة - فأما ناس فيفتنون ويرتدون، وأما ناس فيصدقون ما عاهدوا الله عليه فيقضون نحبهم، ويموتون شهداء، وأما ناس فيصبرون ويصابرون ويصرون على الإسلام، يكرهون أن يعودوا إلى الجاهلية كما يكره أحدكم أن يلقي في النار، حتى يحكم الله بينهم وبين قومهم بالحق، ويمكن لهم في الأرض - كما أمكن للمسلمين أول مرة - فيقوم في أرض من أرض الله نظام إسلامي.. ويومئذ تكن الحركة من نقطة البدء إلى قيام النظام الإسلامي قد ميزت المجاهدين المتحركين إلى طبقات إيمانية، وفق الموازين والقيم الإيمانية... ويومئذ لن يحتاج هؤلاء إلى ترشيح أنفسهم وتركيتها، لأن مجتمعهم الذي جاهد كله معهم يعرفهم ويزكيهم ويرشحهم.

ولقد يقال بعد هذا: ولكن هذا يكون في المرحلة الأولى، فإذا استقر

المجتمع بعد ذلك؟

وهذا السؤال من لا يعرف طبيعة هذا الدين، إن هذا الدين يتحرك دائماً ولا يكف عن الحركة.

...يتحرك لتحرير الإنسان.. كل الإنسان في الأرض... كل الأرض من العبودية لغير الله، وليرفعه عن العبودية للطواغيت، بلا حدود من الأرض أو الجنس أو القوم أو أي مقوم من المقومات البشرية الأرضية الهزيلة السخيفة.

وإذن، فستظل الحركة - التي هي طبيعة هذا الدين الأصلية - تميز أصحاب البلاء وأصحاب الكفايات والمواهب، ولا تقف أبداً ليركد هذا المجتمع ويأسن - إلا أن ينحرف عن الإسلام - وسيظل الحكم الفقهي - الخاص بتحريم تزكية النفس وطلب العمل على أساس هذه التزكية - قائماً وعاملاً في محيطه الملائم... ذات المحيط الذي نشأ أول مرة وعمل فيه...

ثم يقال: ولكن المجتمع حين يتسع لا يعرف الناس بعضهم بعضاً، ويصبح الأكفأ الموهوبون في حاجة في إعلان عن أنفسهم وتركيتها، وطلب العمل على أساس هذه التزكية.

وهذا القول كذلك وهم ناشئ من التأثير بواقع المجتمعات الجاهلية الحاضرة، إن المجتمع المسلم يكون أهل كل محلة فيه متعارفين متواصلين متكافلين - كما هي طبيعة التربية والتكوين والتوجيه والالتزام في المجتمع المسلم - ومن ثم يكون أهل كل محلة عارفين بأصحاب الكفايات والمواهب فيهم، موزونة هذه الكفايات والمواهب بموازين وقيم إيمانية، فلا يعز عليهم أن يتدبوا هم من بينهم أهل البلاء والتقوى والكفاية، سواء لمجلس الشورى أو للشئون المحلية، أما الإمارات العامة فيختار لها الإمام - الذي اختارته الأمة بعد ترشيح أهل الحل والعقد، أو أهل الشورى له - يختار لها من بين مجموع الرجال المختارين الذين ميزتهم الحركة، والحركة دائبة كما قلنا في المجتمع المسلم، والجهاد ماض إلى يوم القيامة^(٦).

(٦) في ظلال القرآن جـ ١٣، ص ١٤.

وهذا الكلام لسيد كلام صحيح صائب، يظهر صوابه على الأقل في الجماعة الإسلامية الحركية إن لم نوافقه على احتمال حصول هذه الظاهرة في المجتمع الإسلامي العام المحكومة بحكومة إسلامية.

بل إن أزمة الحركة الإسلامية الحاضرة إنما هي أزمة قلة المربين والإداريين من أصحاب القابليات الممتازة والصفات العالية، ولن يغفل قائد عن ذي علم وتقوى متحمس في وقت يمسك فيه بالعدسة المكبرة يفتش عنهم تفتيشاً، ولكن تجارب القادة تكره بعث وتأمير المتكلف المستشرف المغرور، فنظن نحن أنهم قد غفلوا عنه، وما هي بالغفلة.

الاستثناء لا يقلد

أما قصة الصدائي رحمهما الله حين طلب الإمارة وأجابه النبي ﷺ فإنما هي استثناء اقتضته المصلحة وأوجبته الظروف، وذلك أن رسول الله ﷺ أرسل بعثاً إلى اليمن ليحارب بني صداء، فشجع فيهم أحدهم، وأسلم، وجاء بوفد منهم إلى رسول الله ﷺ معلنين إسلامهم، وكان هذا الشفيع مطاعاً فيهم، فطلب من رسول الله ﷺ أن يؤمره عليهم، فأجابه إلى ما طلب ففي ذلك كما يقول ابن القيم:

(جواز تأمير الإمام وتوليته لمن سألَه ذلك إذا رآه كفؤاً، ولا يكون سؤاله مانعاً من توليته، ولا يناقض هذا قوله في الحديث الآخر: إنما لن نولي على عملنا من أَرادَه، فإن الصدائي إنما سألَه أن يؤمره على قومه خاصة، وكان مطاعاً فيهم محبباً إليهم، وكان مقصده إصلاحهم ودعائهم إلى الإسلام، فرأى النبي ﷺ أن مصلحة قومه في توليته، فأجابه إليها، ورأى أن ذلك

السائل إنما سألته الولاية لحظ نفسه ومصلحته هو، فمنعه منها، فولي للمصلحة ومنع للمصلحة فكانت توليته لله، ومنعه لله^(١).

فها أنت ترى أنه هو الذي استتابهم، وأنهم بلاد بعيدة منزوية ليس فيهم لو رجعوا أصلح منه، فأقره النبي ﷺ على طلبه، ولا نحفظ في السيرة قصة أخرى مماثلة لها.

يوسف والخزائن

كذلك قول يوسف عليه السلام للعزیز:

﴿قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْهَا﴾ [يوسف: ٥٥].

فإنه (كان حصيفا في اختيار اللحظة التي يستجاب له فيها لينهض بالواجب المرهق الثقيل ذي التبعة الضخمة في أشد أوقات الأزمة، وليكون مسئولا عن إطعام شعب كامل وشعوب كذلك تجاوره، طوال سبع سنوات، لا زرع فيها ولا شرع، فليس هذا غنا يطلبه يوسف لنفسه، فإن التكفل بإطعام شعب جائع سبع سنوات متوالية لا يقول أحد أنه غنيمة، إنما هي تبعة يهرب منها الرجال، لأنها قد تكلفهم رءوسهم)^(٢).

وقد فهم الفقيه الأندلسي أبو بكر الطرطوشي من قول يوسف:

(أن من حصل بين يدي ملك لا يعرف قدره، أو أمة لا يعرفون، فخاف على نفسه، أو أراد إبراز فضله جاز له أن ينبههم عن مكانه وما يحسنه، دفعها للشر عن نفسه، أو إظهارا لفضله فيجعل في مكانه).

(١) زاد المعاد ٣/ ٥٣.

(٢) في ظلال القرآن جـ ١٣ ص ١١.

قال: (وفيه فائدة أخرى: وهو أنه إن رأى الأمور في يد الخونة والصوص ومن لا يؤدي الأمانة، ويعلم من نفسه أداء الأمانة مع الكفاية جاز له أن ينه السلطان على أمانته وكفايته.

ولهذا قال بعض العلماء من أصحاب الشافعي: من كمل فيه الاجتهاد وشروط القضاء جاز له أن ينه السلطان على مكانه ويخطبه خطة القضاء.

وقال بعضهم: بل يجب ذلك عليه إذا كان الأمر في يدي من لا يقوم به^(١).

وما ذهب إليه ظاهر الصواب، أي: في مواجهة الظالم والضعيف، وعلى ذلك يحمل قول أصحاب الشافعي، ولكن يجب ألا يغيب عن البال أن يوسف كان يخاطب ملكا كافرا، وأنه لم يطلب ما طلب إلا من بعد تعريض ظاهر بتأميره من قبل العزيز، على ما يدل عليه سياق السورة، فإن العزيز قال: ﴿اٰتُوْنِيْ بِهٖۤ اَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِىۡ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ اِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِيْنٌ اٰمِيْنٌ﴾ [يوسف: ٥٤].

فطريقة الإيجاز البلاغي القرآني حذفت ما يفهم ضمنا، فإن رسول الملك قال ليوسف فيما يبدو: إن الملك يدعوك، وقد سمعناه يفصح عن رغبته في استعمالك وتأميرك، وتأكد ذلك ليوسف في الإشارة الواضحة في خطاب الملك له حين وصفه بالتمكين والأمانة.

وعليه: فإن تجزئة تفسير قول يوسف وجعله نسبيا واجب، بالتضييق على أناس في تقليد يوسف، والتوسعة على آخرين.

فمن كان من الدعاة مقربا من القائد، مستعملا في عمل مهم يدل على أن القائد وثقه وقواه وأمنه إلى درجة سمحت له باستعماله وجعله من أعوانه، فإنه يسعه -إذا آنس من نفسه بعدا عن الغرور- أن يشير على القائد أن يستعمله في عمل آخر قريب في أهميته مما هو فيه، هو أكثر إتقاناً له، أو

يرى أن مصلحة ما توجب تلك خفيت على القائد. ويلجأ خلال ذلك إلى التعريض دون التصريح ما أمكنه ويعرض رأيه بأدب كامل ولفظ رقيق.

وأما من كان من الدعاة غير مستعمل في عمل من أعمال الدعوة، ويريد أن يطلب نوع عمل مهما صغر، أو مستعملاً في عمل صغير ويريد أن يستعمل في عمل كبير لا يقاربه، فالباب ضيق أمامه ضيقاً شديداً، وتقييده بالأحاديث الصحيحة الواردة في المنع أصوب حتى ولو وجد في نفسه قوة وكفاية، والله أعلم.

في التآني السلامة...

وخير له من ذلك أن يتآني في تحديث نفسه بالإمارة، فإن التآني زين كله.

* يتآني أولاً إلى حين اكتمال فقهه ووعيه، ينفذ وصية عمر ابن الخطاب رضي الله عنه حين قال:

(تفقهوا قبل أن تسودوا) ^(١).

فيجب على الداعية أن يتفقه، لسيادة وقيادة من يأتي بعده من أفواج الآيبين إلى الإيمان.

* ويتآني ثانياً إلى حين اكتمال رجولته وتجربته الحياتية، فإن الأيام لا تزال تزيد المرء تجربة وعلماً كما زادت الشاعر الذي خاطبك:

أخي عندي من الأيام تجربة فيما أظن وعلم بارع شاف

فينفذ وصية الإمام الشافعي حين يقول:

(إذا تصدر الحدث: فاته علم كثير) ^(٢).

* ويتأني ثلاثة في ذلك أيام الفتن على الأخص، ويكون متوقفا حذرا،
ينفذ وصية أبي العتاهية هذه المرة:

اصبر على الحق تستعذب مغبته والصبر للحق أحيانا له ماض
وما استربت فكن وقافة حذرا قد يبرم الأمر أحيانا فينتقض
وأقل ما في الفتن أنها ريبة كلها، وقد ترى الفتنة أنها قد أبرمت أمرها
وأحكمت خطتها، فينقضها وحي الدعاة المؤمنين.

نكلها إلى القادة أفضل..

والداعية المتواضع الثقة قد تعزف نفسه عن الإمارة، لكنه يقع في
اختلاف مع غيره عند ترشيحه للآخرين لبعض الإمارات، فيسرع
المختلفان إلى التعصب لاجتهادهما، في فورة من الحماة، ويجزم كل منهما
بتخطة صاحبه، أو الاعتقاد بأنه يخالفه لنوع هوى ومن باب التعسف.

ومثل هذه الظاهرة خطر ولا شك، لكنها تستحيل بسرعة إلى مجرد
هاجس عابر خال من الضرر إذا انتبه كل منهما إلى وجوب مراعاة الآداب
الشرعية في علاقات الدعوة، كما أسرع أبو بكر وعمر رضي الله عنهما إلى مراعاتها
حين:

(قدم ركب من بني تميم على النبي ﷺ فقال أبو بكر: أمر القعقعاع بن
معبد بن زرارة.

قال عمر: بل أمر الأقرع بن حابس.

قال أبو بكر: ما أردت إلا خلافي.

قال عمر: ما أردت خلافاً.

فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما، فنزل في ذلك: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الحجرات: ١] ^(١).

ولا شك أن تذكر الدعاة دوماً لهذا الأدب، والتطلع لقول قادتهم وإنفاذ اختياراتهم: يجرد مثل هذه الخلافات من كل خطر بتاتاً. فإن تشدد القادة، وأقصوا عن المسؤولية عن الجماعة من لان أو انحرف أو خالف: فبالحزم أخذوا، ليس في ذلك ضير. وإن تساهلوا، وعفوا وتجاوزوا، فبفسد الذريعة وقواعد لم الشمل أخذوا، ليس في ذلك ضير آخر. كل ذلك صواب في أعراف سياسة الجماعات، تؤيد الظروف النسبية المختلفة هذا المسلك أو ذاك، ما لم يكن ثمة هوى. ورحمة الله على من تجرد وغلب هواه، قائداً أو جندياً.



(٦) صحيح البخاري ٢١٣/٥.

9 أنوار الفطنة تبدد ظلمات الفطنة

الجنديّة طريق القيادة، ويوجد ثمة غرور عند البعض وتجاوز يجب تشديدها.

كذلك مضى فقه الدعوة صريحا حاسماً.

إنها صراحة والله، لا تظنن أنها خشونة فتهرب منها وتعافها نفسك، فإن أصررت على وصفها بأنها خشونة، فإنها هي خشونة التربية التي سلكها عبد القادر الكيلاني من قبل، فظنوا كما ظننت، فقال لهم:

(لا تهربوا من خشونة كلامي، فما رباني إلا الخشن في دين الله عز وجل) ^(١).

ونقول لدعاة اليوم كما قال: لا تهربوا من خشونة كلامنا وصراحته، فإن الكلمات الدبلوماسية لا تنفع في تربية الدعوة، ولا أساليب الإيحاء، بل هي الإشارة الواضحة فحسب تربّي، بلا اعتداء وجرح.

أثناء التآني يكون الحساب

وأولى للداعية المسلم أن يكون صريحا مع نفسه قبل ذاك، يخلو خلال تأنيه في الفتن، وخلال انتظاره اكتمال فقهه، فيحاسب نفسه يعاتبها، ألا يقع في الشبهات.

فمن لم يحاسب نفسه في أموره يقع في عظيم مشكل متشابه فإن مهمل نفسه تزدريه الشبه، فلا تقنع منه بطفيف، وإنما تأنيه الشبهات كبيرة، عظيمة الإشكال، خفية التوريط، توهم القلب، فيتعكر

(٦) الفتح الرباني لعبد القادر / ١٦٢.

الشعور، أو تؤلب اللسان، فيلحن النطق. أو تميل بالأذن، فيتشوش السمع، أو تغلق الأجفان، فيغبش النظر.

ولا بد لطالب الفقه من حساب وعتاب.

ازدواج... والقلب واحد

يعاتب القلب: لم يكبح؟

ولم يريد قطع استرساله مع معاني الخير وعزمات العمل، ويأذن لإغراء الدنيويات أن يسامره؟

إنها ساعات التخليط أصبحت تطول في يوم الدعاة، وكأن سمت الأمس قد تغير.

ولو صدق أحدنا نفسه، وأفصح عن حقيقته، لاعترف بالذي اعترف به أبو العتاهية حين قال:

تزاهدت في الدنيا، وإني لراغب أرى رغبتى ممزوجة بزهادتي

فأكثرنا يقع في هذا التخليط: قدم في الدعوة، وقدم في الدنيويات والرغبات والآمال العراض.

لم نتمحض.

وقد أتعبنا الذين يربوننا وأرهقناهم.

فلا نحن ممن يبأس العمل منهم فيتركهم وهو في مأمن من اللوم، لقدم الدعوة ذاك، ولا نحن بالمشمرين حق التشمير فنريجه، بل يعوقنا قدم الدنيا عن سرعة انطلاق عرف بها جيل الدعوة الأول إلى أعلام لا زالت مرفوعة والله لنا كما رفعت له.

وما هي إلا ساعة عتاب واحدة تنهي تعدد الولاء لو تدبرنا.

هزة إيقاظ، لكتف غفلة، من لسان صراحة يعرف كيف يقول:

تيقظ، تيقظ.. تيقظ

تيقظ، فإنك في غفلة يميد بك السكر فيمن يميد

تنافس في جمع مال حطام وكل يزول، وكل يبید

كأنك لم تر كيف الفنا وكيف يموت الغلام الجليد

وتنقص في كل تنفيسة وأنت في ظنك قد تزيد

فهي الأحلام وأضعافها تتدع... توهنا أننا نريد، وإنما هي الأنفاس
تواصل نقصها، والسكر بالتكاثر يميد بنا فيمن يميد.

مصاعب.. ولا صمت لها..

ويعاتب الداعية من بعد لسانه: لم يستحل اللحن والهذر والجدال؟ ولو
فقه المرء لأدرك أن صدق الاندفاع يغني عن صدق اللسان أصلاً، فهو في
غير حاجة إلى كثرة كلام لو كان صادقاً.

والداعية يسبق بفعله قبل أن يفصح بلسانه، يقتدي في ذلك بأبي الفضل ابن
مالك لما وصفه تلميذه الجنيد فقال: (يسبق فعله قوله)^(١).

فإن قال واحتاج إلى النطق فهو القول الواحد الذي لا يتبدل، وهو
القول الواضح الذي لا تلثم فيه.

إذا اختلفت سبل الرجال وجدته مقيماً على نهج من القول واضح

نهج واحد، بوضوح كامل، يكشفان عن قلب في الصدر واحد، لا
قلوب موزعة، وعن ثبات في صفاء، لم تكدرهما رجرجة ولا أخلاط، فإن

اللسان ما زال يترجم للقلب، ولم تزل عفتها سواء، ولهما شرف وعرض مشترك، وإنما فسق الألفاظ من فسق الشغاف، وما الألسن إلا مغارف للأفئدة، تماماً كما رآها البارحة يحيى بن معاذ على حقيقتها، فوصفها لك، ونبهك إلى أنَّ:

(القلوب كالقدور في الصدور، تغلي بما فيها، ومغارفها: ألسنتها، فانظر الرجل حتى يتكلم، فإن لسانه يغترف لك ما في قلبه، من بين حلو وحامض، وعذب وأجاج، يخبرك عن طعم قلبه: اغتراف لسانه).

تشبيه قد يكون ساذجاً كما يبدو لأول وهلة، لكن فيه روعة الحقيقة، وصدق الوصف. اغتراف اللسان يذيقك طعم القلب، ما كذب والله وما غلط، ولم يتقدم بين يدي الله المستأثر بعلم ما في الصدور، لكنها فراسة الإبان: تسمع حركات اللسان وتميز نغماته، فترى الذي يجيش بين الضلوع.

ثم يأتيك صبح من دعاة بعد هذا، يملئون ليلهم رثاء ومرء، وتشقيق كلام وتدقيق ألفاظ، والفرص تمر من بين أيديهم ومن خلفهم، يرقبون أن تتدلى لهم عجيبة الدنيا الكبرى في استئناف الحكم الإسلامي بحبل تدلياً، ويحلمون بقطاف لم يتقنوا سقي ثمره، ينسون أن الدهر لا يأتي بالعجائب، وإنما هي تضحيات الرجال وخالصات الفعال، لا اللغو، ولا تقلب الكفوف والمناحة على واقع المسلمين.

وصحاب في جدال	ومضي غير صائب
يرقبون الدهر أن	يأتي عنهم بالعجائب
فإذا واتتهم الأيام	فالربان سائب
وتضيع الفرصة المثل	ولا تجدي المنادب

ضل من يأمل أن يقهر باللغو المصاعب^(١)

ولئن سألتهم: لم التشقيق والتدقيق؟

ليقولن نريد الفقه، ونبغى الوعي، ونتقن التخطيط، وهم بذلك قد أخطئوا من حيث أصابوا، واختلط الحق الذي ذهبوا إليه بباطل من مخالفة أحكام التفاضل، فإنهم تمسكوا بفرع على حساب أصل، ودندنوا حول سنن قد تفوت معها فرائض الأخوة، ووعي قد تنسى الأرواح بعده دروب التأليف.

ولو تأملوا بهدوء وحسبوا ووازنوا، لعرفوا أن لقاء الدعاة الهادئ، تحت جناح التحابب والاحترام المتبادل خير من طلب صاحب للوعي، فإنه لو لم يكن في اللقاء إلا تثبيت بعض الدعاة لبعض، وإلا السناد النفسي في مثل هذه المحن الشديدة والضراء الطويلة، لنال لقاءهم وصف النجاح، لكنهم صحب يستعجلون.

لماذا الجفاف يا عين؟

وعبر عتاب سريع من الداعية لأذنه، يلتفت خلاله إلى مناد يناديه أن: (يا أيها الرجل؛ لا تكن كالمنخل، يرسل أطيب ما فيه، ويمسك الحثالة)^(٢).

ويتعهد له أن يشيع أطيب ما يسمع، ويستر لفظ المستعجل النادم، وخيالات الحالم النائم:

ينتقل رابعا إلى عتاب طويل لعينه. يسألها أولا: لم تخطي فتختار الجفاف وتقحط؟

(١) للأميري في ديوان ألوان طيف / ٤٠٠.

(٢) سراج الملوك / ١٤.

وصواب من مقلة: أن تصوبا.

كما يقول الشاعر:

فصوابها أن ترسله وابلا صيبا على أرض الأخطاء، بين يدي رب غفور
يحب أن يتملق له عبده بالدمع، ويحب أن يسمعه، في الثلث الآخر من
الليل، وبالعشي والإبكار، يحاسب نفسه ويلوم، ويكرر مع ابن القيم
يخاطب نفسه أن:

(لله ملك السموات والأرض، واستقرض منك حبة، فبخلت بها.
وخلق سبع أبحر، وأحب منك دمة، فقحطت بها عينك)^(٦). ويظل
يردها حتى يظن أنه قد استوفى إنذارها.

لا تظلم نفسك باختيار الظلام..

ثم يعاتب عينه من بعد ثانية: لم تنظر ضياء العمل الإسلامي ظلاما؟ ولم
تتشاء بدل أن تتفاعل لدعوة الإيمان بالخير؟
نعم صعب هو الوصول لدولة القرآن، ولن يأتي الدهر بعجيبة من دون
جد.

لكنه ضياء كله العمل لها، ليس بظلام، وإن ظن المستعجل وجود تباطؤ
أو تعثر.

وهل أسطع من ضياء النية، وضياء الأجر، وضياء الأخوة؟ إن طول
الطريق لن يعدم هذه الأضواء أبداً، ولئن يرجع الداعية بها وحدها خير له
من قعود يوسوس به الشاؤم.

(٦) الفوائد لابن القيم/ ٦٧.

ولكن بعض الدعاة يظلمون أنفسهم بنظرة متشائمة إلى مستقبل الدعوة، ويتهمون التخطيط والقادة والرعييل، فيعتزلون مجالات العمل الوضاعة وهي من حولهم تنادي وتهيب.

وإنما الظلام ظلام المتشائم فحسب، إذ حبس نفسه عن الضياء، والأضواء تنير درب غيره.

وتفهم المتشائم بهذه الحقيقة معضلة صعبة، فإن فاقد الشيء لا يعطيه، ولا يستطيع تصور ما نقول والتصديق بوجود الأضواء.

لكن عبد الوهاب عزام ضرب مثلاً تشبيهاً انتقل منه إلى التفهيم فأجاد، فافترض للمتشائم أنه في حجرة مقفلة سوداء، أليس يبقى من حولها ضوء الشمس؟ حجرة ملؤها الظلام حوتني وحوتها أشعة القمر

فلما أثبت هذه الحقيقة قاس للمتشائم حالة عليها، فقال معقبا:

رب نفس تلفها ظلمات وهي في عالم كثير الضياء^(١)

أي كذلك النفس أحياناً، تضع نفسها في الظلام باختيارها والضياء من حولها كثير وافر، حتى تنسى تدريجياً أن هناك ثمة ضياء عافته، فتنكر وجوده، فيعجب المستنيرون، فيزداد المحبوس الواهم إنكاراً، ويظن العجب تكلفاً وملاحاة، فيفتتن، ويصرخ في حجرته المغلقة السوداء، فلا يجد إلا صدى الظلمات، فيزداد فتنة، يظن الصدى تأييداً.

لكن الذين فطنوا لمثال عزام في الساحات وعرصات العمل ماضون، تغمرهم أنوار الفطنة، وتغشاهم السكينة.

إنه الخبر القديم الحديث لأنوار الآمال وظلمات الفتن، ليس هو خبر من

نراهم اليوم فحسب، فإن عبد القادر الكيلاني صادف المستظلمين، فوضع لهم معادلة قصيرة سهلة، لو أدركوها لخرجوا من تيههم، فقال:

(إذا خرج الزور دخل النور) ^(٦).

زور سوء الظنون في القلب، المسبب للتشاؤم وعبوس الوجه، فالظلام.

ابتسامة الحياء مفتاح الأنوار

وخروج الزور يكون بالابتسامة وبانشرach الوجه عند اللقاء، فإن فيها حماية أكيدة من الوقوع في أخطاء الظنون والتعرض لسهام الوسوسة، وما اكفهر وجه وعبس إلا ترك في نفس المقابل من التصارح والتناصح.

أفلا ترى أن الطلاقة جنة من سوء ما تجني الظنون ومقل؟

ولا يطاوع الابتسام الفم إلا بلزوم حسن التأويل، يرى الداعية الخطأ والاجتهاد المخالف فيسبق صاحبها إلى تلمس العذر والتبرير، ويميل إلى أجمل تفسير، ثم يحرص على أن يقرن الابتسامة والطلاقة بحياء لتمييز عن ابتسامة الاستصغار، التي قد يزينها الشيطان بل يتخلق بخلق "البهاء زهير" حين فخر فقال:

إذا قلت قولاً كنت للقول فاعلاً وكان حيائي كافلي وضميني

تبشر عني بالوفاء بشاشتي وينطق نور الصدق فوق جيني

فهما حياء وبشاشة، يبدوان معاً.

أو: هي الفطنة، مفتاحها: ابتسامة الحياء يبتسمها الداعية، فتتوالى الأنوار، وتفيض تباعاً، وتتكامل، يعضد بعضها بعضاً، لتبدد ما هنالك من ظلمات الفتنة وتعصم من قواصم الإغواء...

(٦) فتوح الغيب لعبد القادر / ٣٧.

إنها مصادر نور أوقدها فقه الدعوة من قبل، لا تزال قائمة تضيء، تنتظر من يلوز بها من المحتاطين الحذرين، والمستدركين التائبين، لترتهم درب السلامة الصحيح يوم تغزو الفتن زمرة القلب الواحد، ويستدرج التأويل الدعاة، وتولد الغيبة سلاسل العيوب، ويرمي الشيطان بسهام الغرور والهوى والكبر وحب المدح، فتفترق الأرواح بعد تأليف، ويحتد التنازع في الرئاسة.

النور الأول: الاستعاذة بالله من الفتن

فأول قبس يتناوله الذي يري الفتنة مقبلة قبس الاستعاذة بالله منها، كما أمرنا رسول الله ﷺ حين لقننا التعوذ منها بإطلاق، وكما فعل عمار بن ياسر رضي الله عنه لما تعوذ من فتنة الخلاف بين المسلمين، فقال -فيما أخرجه البخاري- حين بدت بوادرها: (أعوذ بالله من الفتن).

مع أن عمار قد شهد له النبي ﷺ بأنه من فئة العدل، وتقتله الفئة الباغية.

قال ابن حجر في الفتح:

(فيه دليل على استحباب الاستعاذة من الفتن ولو علم المرء أنه متمسك فيها بالحق، لأنها قد تفضي إلى وقوع ما لا يرى وقوعه) ^(١).

فقل مع عمار أيها الداعية وردد: أعوذ بالله من الفتن، وأكثر منها في كل أحوالك يعيذك الله منها ويقبلك ويعصمك وإن كنت ساذجا، فإنه سبحانه معين معيذ يرحم رجفة الخائف، وذلك الظن به -عز وجل- دوماً، فإن تجربة المستعيزين تجزم بأنه:

إذا اعتصم المخلوق من فتن الهوى بخالقه نجاه منهن خالقه

ولكن انتبه: ليست الاستعاذة العابرة تجزيك بل اقرع باب الله بإلحاح،

واهجر من يأبي القرع معك وتجنب صحبته، واطرح نفسك على عتبة ربك العزيز بذل، حتى تسمع نداء الأمان.

تلك وصية الناصح الحكيم، إليك وإلى الزاهد يوسف بن الحسين، لما شكاه له يوسف من نفسه أخلاقاً لا يرضاها، وركونا إلى الدنيا يفتنه، فكتب إليه أن:

(بسم الله الرحمن الرحيم : وصل كتابك وفهمت ما ذكرت، ومخاطبك أكرمك الله شريكك في شكواك، ونظيرك في بلواك، إن رأيت أن تديم الدعاء وقرع الباب، فإن من قرع الباب ولم يعجز عن القرع دخل، وإن تهيأ لك ما تريد من الصفاء والطهارة فدد ما أنت فيه من البلاء واقتراف مساوئ لا تجدي منفعة في دينك ولا دنياك، وتجنب قرب من لا تأمنه على نفسك في مواصلة الغفلة والبطالة، واستعن على ذلك كله بالقناعة والتجزي، وسله أن يمنَّ عليك بتوبة).

